الحرب واسبابها النفسية

من رأينا ان اسباب الحروب الآن ترجع الى محبة الكسب والتبسُّط في الارض · فالدولة التي تثير حربًا على غيرها من الدول بعد ان تعدَّ لها عدتها انما تقصد ان تكسب منها ارضًا او مالاً او توسُّعًا في السلطة او ما اشبه كما كانت الممالك القديمة يغزو بعضها بعضًا لاجل الكسب والتبسُّط في الملك وكما كانت القبائل تفعل قبلما انتظمت ممالك · ويشارك الدول الآن في مكاسبها مادية كانت او ادبيَّة قوَّاد الجيوش وضباطها وصانعو الاسلحة وموردو المادة ومقرضو الاموال للدول وغيرهم من الذين ينتفعون من الحروب · الاَّ ان فريقًا من العلماء والفلاسفة يقول ان الميل الى الحرب خلق فطري كالميل الى الزواج والنزهة وان هذا الميل هو الذي يدفع الممالك الى اثارة الحروب · وقد اوضح ذلك الاستاذ بترك الاميركي من اساتذة جامعة ايوى بمقالة مسهبة نشرها في مجلة العلم العام الاميركية قال فيها ما خلاصتهُ

منذ نشبت هذه الحرب قام علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد وعلماء السياسة وعلماء الفلسفة وقد حاول كل فريق منهم كشف الغطاء عن اسبابها حسب مذهبهِ فلم يفلحوا لان اصول الحرب مغروسة في فطرة البشر · ويقول علماء طبائع الانسان ومؤرخو حوادثهِ ان ما يرى الآن بين الامم من التناظر والتخاذل والتضاغن مما يدعو الى امتشاق الحسام انما هو آثار باقية مما كان يقع من الحروب بين اسلافهم في غابر الزمن · فان الحروب كانت مستمرَّة حينئذٍ في كل مكان نزلهُ الانسان وسببها رغبة القوي في استعباد الضعيف والانتفاع منهُ لان الحصول على الحاجيات بالنهب اسهل من الحصول عليها بالكدح · ثم ان تلك الحروب افادت نوع الانسان لانها فرضت الضعيف من امام القوي ورسَّخت القواعد التي كان يسنُّها الغالب للمغلوب فميزت الاعمال بين واجب وجائز وممتنع · واتفقت تلك الاقوام على تحريم القتل وتهجينهِ بين اعضاء الفئة الواحدة وتحليلهِ وتحبيذهِ بين فئتين متحاربتين · ونظام الممالك الآن مبنيٌّ على القواعد التي اسسها السلف وجروا عليها · فالامراء والاغنياء من الفريق الواحد يستخدمون ضعفاءهُ وفقراءهُ كما يستخدم الغالب المغلوب · والفريق القوي يستخدم الفريق الضعيف · ويُمدَح ما يفعلهُ الفريق الواحد بالفريق الآخر من قتل ونهب فيسمَّى فتكًا وغنيمة ولكن نشأ ايضًا بين الطوائف السياسيَّة الحربيَّة طائفة ادبيَّة وطائفة صناعية وتجارية واتسع نطاقها حتى شمل المسكونة واساسهما ان الناس عمومًا مشتركون في المنفعة وان عليهم بعضهم لبعض حقوقًا يجب قضاؤها · ولكن اذا ثارت الحروب عادت الغرائز القديمة فتغلبت

على النفس لانها اقدم وارسخ وهي غرائز البغضاء والانتقام والقتل والسلب والنهب

ولا يخفى ان الفوز في هذا العصر لا ينبغي ان يكون للاقوى جسماً ولا للاذكى عقلاً. وان الغالب والمغلوب يخسران على حدٍّ سوى · والمغلوب لا يستأصَل ولا يستعبَد · والذين يُجرَحون ويصابون باعاقات تمنعهم العمل هم اكثر من الذين يُقتَلون · والذين يُقتَلون ويجرحون هم زهرة الامة · ثم ان نفقات الحروب باهظة تفقر الامم وتوقف دولاب الصناعة والتجارة وتقوّض معالم العمران · وويلاتها كثيرة فادحة فانها تخرب البيوت وتضعف النسل وتفسد الآداب وتورث الضغائن والاحقاد وليس لها فائدة من الفوائد التي كانت لها في اول عهد الانسان فكان الواجب ان تزول تماماً ولا يبقى لها ذكر الاّ في تواريخ العصور الغابرة ولكن الامر على ضد ذلك كما يستدلُّ من حوادث التاريخ ومعاملات الناس في هذا العصر فان الشغل الشاغل لامم الارض الآن هو الاستعداد للحرب بل انهم يسعون الى الحرب خوفاً من الحرب فترى هنا دولة تثير حرباً لامتلاك بوغاز تمرُّ فيهِ سفنها التجارية مخافة ان تنشب حرب تمنعها من المرور فيهِ كما تمرُّ وقت السلم · وهناك دولة تثير حرباً لكي تتبسَّط في الارض ولا يمنع تجّارها من الاتجار في اقاصي البلدان وسفنها من اخذ الخم منها مع انها متمتعة بذلك كله في زمن السلم ولا تحرَم منهُ الاّ زمن الحرب · وهنالك دولة تثير حرباً لكي تضمَّ اليها بلاداً اخرى وقد لا تجد في تلك البلاد كثيرين يودون هذا الضم او تصلح امورهم بهِ · ولا دليل ولا شبه دليل الآن على ان سكان الممالك الكبيرة الواسعة اسعد حالاً من سكان الممالك الصغيرة الضيقة · فليس للحرب سبب معقول وداعٍ موجب غير حب الحرب · ولولا تأصُّل هذا الحب في النفوس لزال منذ عهد طويل لان اسباب العمران كلها تعمل على ازالتهِ

منذ مئة سنة عُقدت الآمال بابطال الحروب وانتشار لواء السلم في المسكونة كلها · وقال الناس حينئذٍ ان الذين يثيرون الحروب اشرار همهم نزع الامن وتعطيل الاعمال وان اتساع نطاق التجارة وتبادل طرق المعاملات كفيلان بنشر لواء السلام والرخاء والاخاء

ولكن هذه الاماني زالت كاضغاث الاحلام فان اتحاد الولايات الايطالية سنة ١٨٥٩ اعاد الى اوربا روح الاثرة الوطنية وتلا ذلك اتحاد الولايات الاميركية سنة ١٨٦١ وممالك المانيا سنة ١٨٧١ ونهوض امم السلاف وتوطيد عرى الامبراطورية البريطانية فزادت النعرة الوطنية قوةً وحدة وقامت الدول تقيّد حرية التجارة بدل اطلاقها فغالت في وضع الرسوم الجمركية · وحلَّت النعرة الوطنية محل الاخاء العام واشتد السعي والجهد فاصبح كل احد يجاهد ويجالد لكي يفوق غيرهُ وصار الجد والكد عنوان الحياة · فاتسع نطاق العلوم

والاختراعات وراجت الصناعة والتجارة واشتدَّت رغبة الممالك في الاستكثار بالكسب ولو بحد الحسام · ولما زاد الضغط على النفوس الى هذا الحد انفجرت منها هذه الحرب الزبون التي هي اعظم حرب شهدها نوع الانسان وليس لها سبب ادبي كالحرب الاهلية في اميركا ولا سبب ديني كالحروب الصليبية وحروب الاصلاح ولا مالي كالحروب الرومانية ولا معاشي كبعض الحروب القديمة المسببة عن المجاعات · فان اوربا كانت في اوج مجدها وزهوها لما نشبت الحرب وقد بلغت قيمة متاجرها سنة ١٩١٣ اكثر من ثمانية آلاف مليون جنيه وقيمة متاجر الالمان وحدهم بين صادر ووارد الف مليون جنيه وقيمة متاجر الانكليز وحدهم ١٢٠٠ مليون جنيه واصدرت انكلترا تلك السنة الى المانيا ما قيمتهُ ستون مليون جنيه وابتاعت منها ما قيمتهُ ثمانون مليون جنيه · ودخول ايطاليا في الحرب دليل قاطع على ان سببها نفسي لا معاشي ولا اجتماعي

ولفهم هذا السبب النفسي يجب ان نلتفت الى تاريخ الانسان منذ اول نشأتهِ · ففي سالف الزمن نبغ العقل فظهر انهُ افعل من الناب والمخلب وامضى من الرجل السريعة والذراع القوية · وقويت قوى العقل النافعة في المعاش كالمهارة والحيلة واليقظة والتجريد والتحليل والاستنباط · ولكن هذه القوى تحتاج الى دماغ كبير فكبر الدماغ رويداً رويداً واكتسب الانسان قوة النطق ومن ثم أمست قواهُ البدنية لا تزيد لان حاجتهُ اقتصرت على دماغ كبير ويد ماهرة · ثم كاد يستغني عن مهارة يديهِ بذكاء عقلهِ ولكنهُ بقي محتاجاً الى معدتهِ وقلبهِ ورئتيهِ وما اشبه من الاعضاء اللازمة لقيام دماغهِ واستغنى ايضاً عن المطايا وتغلَّب على مصاعب الطبيعة بما سخَّرهُ من البخار والكهربائية

وسارت الاشغال العقلية في اوربا واميركا سيراً حثيثاً منذ اواخر القرن الماضي حتى لم يبقَ شأن لغير الدماغ في اشغال الانسان فاشتدَّ عناء العقل حتى كاد يزحزح تحت حملهِ

انظر الى المخترعات الحديثة والمصنوعات الكبيرة والتدابير الفائقة وقدِّر لها ما شئت مما استنزفتهُ من قوى العقل كالتلغراف اللاسلكي والبوارج العظيمة والبلونات المسيَّرة والجيوش المنظمة وما يخترق المدن الكبيرة من سكك الحديد والترام في شوارعها وتحتها وفوقها وآلات السينما ونظام البريد والتلغراف وادارة المدن والشركات الصناعية والتجارية وما اشبه مما يُعدُّ منهُ ولا يعدَّد · فان هذه كلها اشتغلت بها العقول واستنزفت فيها قواها · فتعب الدماغ وكاد يكلُّ · وقوَّتهُ متوقفة على قوة المعدة والقلب والرئتين لكن الطبيعة اسرعت في انمائهِ وافرطت فيهِ قبلما تقوي هذه الاعضاء فيعتريها الخلل والملل وتعجز عن امداد الدماغ بالقوة اللازمة والافراط يدعو الى التفريط والتعب يستدعي الراحة فما كان من الجُهد العقلي في

اميركا انفى الى التلهي بالرقص والصور المتحركة وركوب الاوتوموبيل والتباهي بحلى الماس. فاستراحت ادمغة الناس من عنائها وعاد التوازن اليها لانهم عادوا الى لعبتهم الاولى حينما كانوا يرقصون ويطفردن ويتباهون بالحلى والحلل. اما سكان اوربا فطلبت عقولهم الراحة بالعود الى عمل آخر من اعمال الفطرة وهو القتال وسفك الدماء. وقد استغرب جمهور الناس ذلك من ممالك في اوج الارتقاء كالمانيا وفرنسا وانكلترا واما علماء النفس فلا يستغربونهُ لانهُ انتقال وقتي من حالة الى اخرى دعا اليهِ طلب الدماغ للراحة. وقد ظهر تعب الدماغ قبل الحرب بمظاهر مختلفة ففي انكلترا كثر الخلاف بين طبقات الناس حتى كاد يفضي الى حرب اهليَّة وفي روسيا اشتدَّ اعتصاب العمال حتى سدوا شوارع بتروغراد ولكن لم تكد الحرب تشهر حتى انصرفت القوى اليها فسادت السكينة حيث خيف من الحرب الاهلية وعاد الناس الى عهد البداوة حينما كانوا يضربون الطبول ويتجالدون ويتصارعون

والناس اذا ارادوا الراحة من عناء الاشغال تلهَّوا بالصيد والقنص وسباق الخيل والتحريش بين الديوك وتفرَّوا الى الحراج والغابات وصعَّدوا في الجبال وصبروا في الاودية اي نزَّهوا عيونهم وروضوا ابدانهم لكي تسكن عقولهم وتستريح ولكن هذه الراحة القليلة وهذا العود الجزئي الى الفطرة لا يكفي الامم دائمًا فتطلب ما هو اقدم منهُ واعرق اي الحرب والكفاح

فالحرب ماءٌ طهور تتطهَّر بهِ الشعوب المتحاربة فتتأهل للعود الى السير في سبيل الارتقاء ولكنهُ لا يطهرها بازالة ادران فيها كما قال ارسطوطاليس بل براحتها من اجهاد ادمغتها وارجاعها الى عصور الخشونة حينما كان الرجل يبارز خصمهُ وكلٌّ منهما يستعين بالهِ على خصمهِ فتستريح مراكز العقل العليا ويزول الضغط عنها

واستطرد الاستاذ بترك الى لزوم المسكِّنات كالتبغ والخمر وحيثما يكثر تهييج الدماغ لاجل تسكينهِ فاذا أُبطلت هذه المسكنات كثر القلق والاضطراب. واستنتج اخيرًا ان الحروب لا تبطل الاَّ اذا استنبط الناس ما يقوم مقامها لأن الانسان لا يكتفي بالعمل والكدح بل هو ميَّال الى اغتنام المسرَّات واكتساب الفخار ولو باقتحام الاخطار

هذا وعندنا على الاستاذ بترك والذين يذهبون مذهبهُ اعتراض نراهُ وجيهًا وهو ان الاعمال التي يعملها الانسان مدفوعًا اليها بالفطرة يعملها فجأة من غير نظر وتأمل وهذا يصدق على الجنود حينما يخوضون غمار الحرب وعلى الامم التي تهاجَم فتهبُّ للدفاع عن نفسها اما الدول التي تثير الحروب بعد ان تأهب لها اربعين سنة كما فعلت المانيا فلا يُعقَل انها اثارتها بدافع طبيعي فيها بل قصدًا التبسط في الارض والكسب ماديًّا وادبيًّا